

مقدمة الكتاب

الحمد لله العلى الأعلى الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى، والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى... أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليفه ﷺ.

وبعد،

فإن الناظر إلى أحوال الناس المتأمل شؤون معاشهم يرى ما يؤجعه ويؤلمه من فساد الضمائر ووهن الذمم، وسوء الخلق، واستفحال الشر، وكثرة الفساد... وما هذا إلا بسبب تهميش ريادة الدين، وتقليص نور المتدينين، وإهمال جانب التربية، وغياب المربي المخلص الناصح.

ومساهمة منا في إصلاح المجتمع وتصحيح عقيدته وبحث الأخلاق والفضائل في نفوس الناس، فإننا نهدي هذا الكتاب إلى من يهيمه الأمر؛ ليكون صيحة إنذار توقظ النائمين، وقبس نور يهدي الحائرین، وسوط حق يرد كيد الباطل ويدمغه في وكره. وموضوع الكتاب "من أخلاق المؤمنين" المستمدة من فيض القرآن وأنوار الرسول الكريم كتبها فضيلة الشيخ الراحل/ عبد العاطى على سليم... الذى عرفه أحبابه وتلامذته مرشداً ناصحاً، وداعية مثقفاً، يعايش الواقع ويحمل هموم المجتمع. ولقد جمعت هذه الصفحات من تراثه العامر حتى ينتفع بها الناس؛ ولتكون صدقة جارية له في قبره وامتداداً له في عمره، وصديق القائل:

الخط يقبى زماناً بعد كتابه :::: وصاحب الخط تحت الأرض مدفون

فالعلم الذى يخلفه المرء من بعده يكون سبباً في دوام ذكره وتجديد ذكراه، ومن أجمل ما قيل في حق العلماء قول أحدهم:

ما الفخر إلا لأهل العلم إجم :::: على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه :::: والجاهلون لأهل العلم أعداء
فمن يعلم تعيش به أبداً :::: الناس موتى وأهل العلم أحياء

وأسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته وجميل لطفه وعين رعايته، وأن يفتح لنا أبواب التوفيق والرضا والقبول.

والله تعالى نعم المولى ونعم النصير،

محمد عبد العاطى سليم
شعبان ١٤٢٢هـ / أكتوبر ٢٠٠١

تمهيد

التربية الخلقية في الإسلام

من قديم الزمان والعلماء والفلاسفة والمصلحون يتحدثون عن الأخلاق وعن التربية الخلقية. وبعض الفلاسفة والمفكرين يغرقون في تأملاتهم ويذهبون مذاهب شتى لا تمت إلى الواقع بصلة ولا يمكن تحقيقها إلا في خيالهم فقط. في عالم المثل والمدينة الفاضلة اللذان قال بهما أفلاطون فيهما كثير من الشطحات والخيالات.

ويعرف ذلك كل من درس فكر هذا الفيلسوف! ولست بصدد الحديث عن ذلك. ولكني أريد أن أتكلم عن التربية الخلقية في الإسلام. وكيف عالج الإسلام ذلك الجانب الخلقى فنقول: إن التربية الخلقية في الإسلام تربية مثالية بمعنى أنها المثل الأعلى لمن ينشد الكمال. وليس هناك زيادة لمن يبتغى المزيد عليها. وهي مع كونها مثالية فهي أيضا واقعية بمعنى أنه من الممكن تحقيقها لمن أخذ نفسه بتعاليم الإسلام وهدى القرآن.

وأول ما نلاحظه في التربية الخلقية أن الإسلام يربط الأخلاق أولا بالإيمان والعقيدة التي هي الفيصل بين الكفر والإسلام...

ف نجد مثلا الحديث النبوي يقول: «الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» ويقول: «الحياء شعبة من الإيمان»^(١). ويقول: «الصبر نصف الإيمان»^(٢). ويقول: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(٣). والإسلام حين يذكر أهله بالعقيدة التي هي أعز شيء عندهم ويربطها بالخلق إنما ينبه الجانب الحساس في نفوسهم، وليجعل أخلاقهم دائما في حراسة العقيدة.

ونجد كذلك أن الإسلام يربط الخلق بالعبادة. فجعل من العبادات معامل من لتحليل النفسي ومراكز للتدريب الاجتماعي فنجد مثلا عبادة الصلاة. هذه العبادة التي تتكرر في اليوم والليلة خمس مرات مفروضات لا يكفي فيها ما ذكره الفقهاء من شروط صحة أو شروط وجوب وابتعاد عن مبطلاتها - أبدا لا يكفي فيها هذا وحسب وإنما الصلاة هي التي تضمن إلى جانب هذا الجانب الخلقى الذي يصقل النفس ويظهر الوجدان

(١) رواه البخاري.

(٢) الحديث رواه الترمذي.

(٣) رواه البخاري.

قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} ^(١). فالنتيجة من الصلاة هي أن يكون بين المصلي وبين الشر والفساد حاجز يمنعه، وضمير يضبطه، وعقل يحول بينه وبين ذلك ومن لم تنهه صلاته عن ذلك لم يزد من الله إلا بعداً. وكم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب والنصب. وكذلك لا يقتصر فضلها على هذا الجانب السلبي في البعد عن الفحشاء والمنكر لأنها تخلق في المسلم جانباً إيجابياً. فالمصلي عطوف على المسكين وابن السبيل. يرحم الأرملة ويعين المصاب يقول الله في الحديث القدسي: «إنما أتقبل الصلاة من تواضع بما لعظمتي. ولم يستطل بما على خلقي. ولم يبت مصراً على معصيتي. وقطع غماره في ذكري. ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب. ذلك نوره كنور الشمس أكلوه بعزّي استحفظه بملائكتي. وأجعل له في الظلمة نور. وفي الجهالة حلماً. ومثله في خلقي كمثّل الفردوس في الجنة» ^(٢) هذه هي الصلاة الحقّة. الصلاة المقبولة. الصلاة التي تنفع صاحبها حين يقف وحيداً فريداً بين يدي ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. أما هذه الصلاة التي يؤديها الكثير من مسلمي اليوم فهي أشبه ما تكون بالميت - فاقد الروح هي حركات فقط. وأعمال فحسب.

والصيام هو يعدل وحده ربع الإيمان كما قال رسول الله: «الصوم نصف الصبر». وقال عن الصبر: «الصبر نصف الإيمان» هذه العبادة التي هي سر بين العبد وربّه لا يكفي فيها ما ذكر من شروط صحة ووجوب فقط. فإن الصوم له صورتان: الصورة الأولى: هي صورة الكف عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر حتى غروب الشمس الصورة الثانية: هي كف الجوارح عن الآثام. والصورة الثانية هذه هي لباب الصوم وروحه. فالصائم لا يرفث ولا يفسق ولا يصخب. وإن سابه أحد أو شاتمته فليقل: إني صائم إني صائم. والصائم كذلك لا يغتاب ولا ينم ولا يكذب لأن ذلك ينطّل صومه بمعنى فقد الثواب وضياح الأجر... ^(٣).

قال رسول الله ﷺ: «خمس يفطرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنميمة، واليمين الكاذبة، والنظر بشهوة» وبذلك يعلم أنه ليس الإفطار فقط بالمفطرات الحسية وليس كل من كف عنها صائم. يقول الإمام الغزالي في كتابه الفذ (إحياء علوم الدين): (وكم من صائم

(١) سورة العنكبوت. الآية رقم (٤٥).

(٢) رواه البزار من حديث ابن عباس. وسنده ضعيف ولكنه صحيح من جهة المعنى.

(٣) جاء هذا المعنى في حديث صحيح رواه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله قال: (الصيام جنة. فلا يرفث ولا يجهل. وإن امرئ قتل أو شاتمته فليقل: إني صائم مرتين).

مفطر وكم من مفطر صائم). فالمفطر هو الذى يحفظ جوارحه من الأثام ويأكل ويشرب. والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش لكنه يطلق العنان لنفسه تعريداً وتقسطاً وتزويجاً وتتحرف.

والزكاة وهى المظهر الأصيل من مظاهر التعاون الإسلامى والتآخى بين المسلمين. هذه العبادة بوثقة تصان فيها الغرائز المادية. فجنى المال وجمعه وعدم إنفاقه غريزة. لكن التربية الخلقية تخلق من هذه الغريزة الجشعة غريزة أخرى تتسامى عن ذلك وتجعل المال فى خدمة المجموع. والمزكى حين يخرج صدقته لا يعتبر هذا تفضلاً منه على الفقير بل يعتبر هذا حقاً له وديناً عليه امتثالاً لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} ^(١) وهو لا يمتن على من أخذ الصدقة لأن القرآن يقول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} ^(٢) وعلى هذا تقاس جميع العبادات. فالغاية من التربية الخلقية فى الإسلام أن تهذب النفس الإسلامية وتتكامل لتستطيع القيام بواجبها نحو الله ونحو بنى جنسها. وأن تتطهر المشاعر الوجدانية وتسموا وتخلق فى رحاب الله حيث تشرق عليها الأنوار القدسية السرمدية. وأن تخلق لدى الفرد المسلم رقابة داخلية لا تستمد سلطاتها من أمر خارجي وإنما تقيم فى نفس المسلم محكمة عادلة تراقب أدق المراقبة. وتحاسب أعصر حساب. ثم تحكم أعدل حكم. وتنفذ - دون تدخل شرطة أو قانون - أضمن تنفيذ.

التربية الخلقية فى الإسلام لا تكتفى بأن تلقن المسلم الفضائل فيحفظها ويردها. ولكن تعنى أولاً قبل كل شيء بأن تتحول هذه الفضائل إلى أعمال. فالصدق مثلاً ليس نظرية تلقن وإنما هو عادة يجب أن ينطبع بها الذهن ويمرن عليها اللسان وتستقر فى اللاشعور. فإذا كان المرء من طبيعته أن يأكل ويشرب وينام ويستيقظ. فإن التربية الخلقية فى الإسلام تجعل الفضائل عادات وطبائع كعادات الأكل والشرب وطبيعة الحركة والسكون.

إن التربية الخلقية فى الإسلام تحرر الإنسان من أدران المادة الصماء وجحودها إلى طهر الإنسانية وجمالها. هذه هى الغاية من التربية الخلقية فى الإسلام... تهذيب للنفس، وتطهير للوجدان، وارتقاء بالمشاعر نحو مدارج الجمال والكمال والله أعلى وأعلم.

عبد العاطى على سليم

(١) سورة المعارج. الأيتان رقم: (٢٤، ٢٥).

(٢) سورة البقرة. الآية رقم: (٢٦٤).